الديمقراطية الخلاقة و المهمة التي تنتظرنا

بقلم جون ديوي
ترجمة . د. علي أسعد وطفة

في هذه المناسبة لا أستطيع أن أخفي أنني أتممت الثمانين من عمري . و في اللحظة التي أشير فيها إلى هذا الحدث فإنكم تفكرون في أشياء أكثر أهمية ولا سيما وأن قدر بلادنا قد شهد أحداثا جساما في غضون هذه المرحلة الزمنية ، و هي مرحلة تجسد نصف الزمن الذي بدأت فيه حياتنا العقلية. و لأسباب واضحة فإنني لن أستعرض هذه الأحداث حتى الأكثر أهمية فيها ، و إذا كنت أقدم بعض الإيضاحات حول هذه الأحداث فذلك لأنها ترتبط بالسبب الذي كان مجتمعنا يضحي من أجله عندما بدأت أمتنا تتشكل و تتكون **وهو بناء الديمقراطية** . وهو سبب ما زال يحتفظ بأهمية اليوم كما كان في الماضي منذ مائة و خمسين عاما ، و ذلك عندما اجتمع أفضل الرجال وأكثرهم خبرة و حكمة من أجل دراسة الوضع و خلق المجتمع السياسي المستقل .

لقد أفضت موجة التغيرات الحاصلة في السنوات الأخيرة إلى حصاد من النتائج الهامة والتي تقتضي منا أن نبذل جهدا مضاعفا من أجل السيطرة على أنماط الحياة والوضعيات الناجمة و بصورة طبيعية عن ظروف مناسبة لحدوثها .

منذ ثمانين عاما لم تكن البلاد قد شهدت ما تعرفه اليوم من حركة عمرانية، وباستثناء بعض المدن الكبرى ، فإن شروط الوجود كانت شبيهة إلى حد ما بهذه التي كانت في زمن البناء و التشييد ، و لا سيما عندما كانت تقاليد المؤسسين تساهم في بناء أفكار و عقائد متجددة . و على الأقل يمكن القول في المستوى الذهني أن البلاد قد انفتحت على دروب جديدة تسعى إليها ، و لا سيما الأقاليم التي كانت فياضة وغنية بالمصادر الخام ومن غير ملكية . لقد كانت البلاد جاذبة و غنية بإمكانياتنا المادية. ومع ذلك **كله يمكن القول أن أمتنا** لم **تولد من مصادر و ظروف مادية خالصة، بل ولدت و تشكلت من أناس مبدعين** استطاعوا أن يكتشفوا مؤسسات وأن يبدعوا أفكار جديدة مع حالات تفيض بالشروط المادية الجديدة . هؤلاء الناس كانوا مبدعين و خلاقين في جوانب الحياة السياسية . إن ما يجب

علينا أن ندركه جيدا أن حضارتنا ليست نتاجا لعطاءات مادية وفيزيائية فحسب بل هـي وبالدرجـة الأولى عصارة عطاءات أخلاقية وإنسانية . فعصر الأراضي البكر التي لا حدود لها تغير ، **وبالتالي فـإن المصادر التي لم توظف وتستثمر اليوم هي مصادر إنسانية أكثر منها مادية** ، فالأرض الغنية والخـصبة تتجسد اليوم في الناس رجالا ونساء عاطلين عن العمل، في رجال ونساء الشباب يبحثون عن أبـواب للوجود والحياة ، هؤلاء الذين كانوا في الماضي يملكون فرصة قد تكون مناسبة ، فالأزمة كما تعبر عـن نفسها، منذ مائة وخمسين عاما تكمن في **مجال الإبداع الممكن** في **مادة الحياة الاجتماعية والسياسية** ، ونحن نعيشها اليوم بصورة **تتطلب درجة أكبر من الإبداعية والقدرة على الخلق.** وهنا يترتب علي أن أؤكد بأنه يجب علينا اليوم أكثر من أي وقت مضى أن نبذل جهودا كبيرة وخلاقة ومستمرة من أجـل بناء نوع من الديمقراطية المتقدمة ، التي نجمت في الأصل - ومنذ مائة وخمسين عاما في أفضل حالاتها - عن التنظيم الخلاق بين الأحداث والناس وهي الديمقراطية التي ورثناها ، ونحن ما زلنا حتى هذه اللحظة نعيش هذا الإرث الديمقراطي .

وفي هذا السياق فإن الوضعية الكونية اليوم لا يجب أن تذكرنا بضرورة تطوير مختلف أوجه طاقاتنـا لكي نثبت الجدارة والأهلية فحسب، بل تضعنا هذه الوضعية الحالية في رهان التحدي الكـبير والـذي يتوجب علينا بموجبه ، وفي هذه الشروط الحرجة والمعقدة ، أن نحدد موقعنا في هذا العالم وذلـك هـو الأمر الذي حدده أسلافنا في شروط أقل صعوبة .

وأنا في هذا السياق أؤكد بأن هذه المهمة لا يمكن أن تتحقق من غير قدرة على الإبـداع والخلـق والتجديد ، وذلك لأن خطورة الأزمة الحالية تعزى في أغلبها إلى أننا كنا نتصرف، وخلال عهود قريبة، **وكأن ديمقراطيتنا تتجدد بصورة آلية وكأن أسلافنا قد وضعوا** في **داخل هذه الديمقراطية جهازا آليا يمكنه من اكتشاف المشكلات وإيجاد الحلول المناسبة لها** ، ولاسيما في المجال السياسي . فنحن نتصرف **وكأن الديمقراطية هي شيء موجود** في **واشنطن بصورة رئيسة أو** في **أية عاصمة لبلد آخر** ، وذلـك تحت تأثير تدافع الرجال والنساء الذين يذهبون إلى صناديق الاقتراع مرة واحدة في العام ، لقد اعتدنا أن ننظر إلى الديمقراطية بوصفها آلية تحدث عفويا وذلك عندما يؤدي الناس وبإخلاص واجباتهم السياسية .

ومنذ عدة سنوات بدأنا نسمع وبصورة متزايدة بأن هذه الديمقراطية ليـست كافيـة ، وأن هـذه الديمقراطية هي طريقة في الحياة ، وهذه الرؤية هي رؤية حقيقة وصحيحة وهي تقودنـا إلى مـا هـو جوهري بصورة مباشرة ، ولكنني أتساءل في هذه السياق إلى أي حد بقيت فيه النظرة الخارجية للفكرة القديمة عن الديمقراطية راسخة في الذهنية ، وفي كل الأحوال ، يجب علينا أن ندرك نظريا **وعمليا بـأن**

الديمقراطية هي طريقة شخصية في **الحياة** ، وهي بالتالي ليست مجرد شـيء خـارجي يحـيط بنـا . **فالديمقراطية هي : جملة من الاتجاهات والمواقف التي تشكل السمات الشخصية للفرد والتي تحـدد ميول وأهداف الفرد** في **مجال علاقاته الوجودية .** وهنا يجب علينا وبدلا من الاعتقاد بـأن اتجاهاتنـا وعاداتنا تكافئ الأنظمة ، يجب **علينا أن ندرك بأن المؤسسات والأنظمة هي تعبير وامتداد للاتجاهات الفردية السائدة .**

إن الاعتقاد بأن الديمقراطية كطريقة فردية وشخصية في الحياة ليس جديدا ، ومع ذلك عندما نـضع هذه ا الاعتقاد في محل التجربة فإن ذلك يعطي لهذه العقيدة دلالة جديدة مجسدة قياسا إلى الأفكار القديمة **. وهذا يعني أن بناء اتجاهات شخصية جديدة عند الأفراد يـساعد** في **مواجهـة القـوى المعاديـة للديمقراطية ويساعد إلى النجاح** في **هذه المواجهة ،** وهذا بدوره يتطلب منا أن نعمل علـى تطويـف اتجاهنا في الاعتقاد بأن **الوسائل الخارجية العسكرية والمدنية ، يمكنها أن تدافع عن الديمقراطية** ، وأن نؤكد بأن الاتجاهات الديمقراطية المتأصلة في عمق الأفراد، التي تشكل جزءا لا يتجزأ من شخـصيتهم ، هي التي تمثل القدرة الحقيقية على حماية العطاء الديمقراطي والمنافحة عن وجوده .

فالديمقراطية طريقة في **الحياة تنطلق من الإمكانيات الطبيعية للإنسان فالإيمـان بأهميـة وجـود الإنسان الاجتماعي مقولة تتكافأ مع مبدأ ديمقراطي. و**الديمقراطية طريقة حياة لأنها تأخذ مكانهـا في داخل الإمكانيات الطبيعية للإنسان ، فالإيمان بالإنسان الاجتماعي مقولة تتآلف مع المبدأ الـديمقراطي ، وهذا الإيمان سيفتقر إلى مغزاه ودلالته **إذ** لم **يأخذ صورة عقيدة جوهرية** في **طبيعة الإنـسان ، وهـو بالتالي إيمان يقرر إيمان بأن هذه الطبيعة توجد** في **كل كائن إنساني رغم اختلاف اللون و العـرق و الجنسية و الولادة و الغنى المادي أو الثقافي**. وحتى عندما تتجسد هذه بصورة قانونية فإنها مع **ذلـك تبقى كلمة لا حياة فيها إذا** لم **تسجل** في **نسق الاتجاهات** التي **تؤكد** إلى **أن الإنسان هو صنو الإنسان** في **مختلف جوانب و علاقات الوجود و الحياة اليومية الإنسانية** . إن أدانه النازية لأنها حركـة غـير متسامحة و حاقدة أمر يؤدي إلى التعصب إذا كنا في إطار حياتنا اليومية و علاقتنا الاجتماعية و في جمال اهتماماتنا تحركنا أحكام مسبقة حول العرق و اللون أو أحكام أخرى مسبقة .

فالإيمان بالمساواة هو عقيدة لكل إنسان مهما يكن أمره وله من الحق في أن ينال مـن عطائهـا . وبالتالي فإن مفهوم ديمقراطية السلطة مفهوم يشمل الجميع دون استثناء . فهي العقيدة بأن كل فرد قادر على أن يوجه حياته دون الخضوع للإكراه و دون أن يرتهن لإدارة أحد ما مهما يكن أمره .

فالديمقراطية هي طريقة حياة شخصية ، و هي طريقة لا توجد بمجرد الإيمان بالطبيعـة الإنـسانية فحسب بل أيضا بأهمية **الاعتقاد بأنه عندما تتوفر للإنسان الشروط المناسبة فإن الأفراد يـستطيعون السلوك و التكيف بذكاء و قدرة** . لقد اتهمت لأكثر من مرة و من **خلال الجهات المعارضة** لي **بأنني مسحور بثقة كبيرة و خيالية بأهمية ذكاء الإنسان و طاقاته اللامحدودة و بأهمية التربية بوصفها علاقة ذكاء و نباهة** . مهما يكن الأمر فإنني لست الذي أبدع هذه الرؤية ، لأنني تعلمت ذلك من الوسـط الذي أعيش فيه و ذلك بقدر ما كان هذا الوسط خاضعا للروح الديمقراطية . و في الواقع و مهما يكن حال العقيدة الديمقراطية فإن دورها ينبع في المناقشة و الانفتاح و ذلك في مستوى الرأي العام ، ووفقـا لذلك فإن الاعتقاد بالإنسان الاجتماعي يبرهن على الدلالة الاجتماعية للأحداث و الآراء . ففكـرة أن الاعتقاد بقرارات الذكاء الإنساني لا حدود لها وبالتالي فغن هذا الاعتقاد مسجل في المنطق الـداخلي للديمقراطية، وأنه في اللحظة التي ينكر فيها أحد ما هذه الحقيقة فإنه بالتأكيد يخون انتمائه الديمقراطي.

إنني عندما أتأمل الشروط الصعبة التي يعيشها الناس اليوم في البلدان الأجنبية : الخوف من الـسجن والمرض والاعتقال ، فإن ذلك يدعوني إلى التفكير بأن جوهر الفكرة الديمقراطية و ضـمانها الـداخلي يوجد في إمكانية التوقف و بصورة عفوية في زاوية الشارع من أجل المناقشة حول ما قرأه الفرد هـذا اليوم في الصحف ، وفي حرية الحديث بحرية داخل قاعة أو حجرة مع بعـض الأصـدقاء . إن حالـة اللاتسامح والقهر التي تنبع من مجرد اختلاف الآراء الدينية أو السياسية أو التجارية أو العرقية ، أو لمجرد الاختلاف في اللون ، أو في مجال التحصيل الثقافي ، هي نوع من الخيانة والغدر تجاه الحياة الديمقراطية .

وفي حقيقة الأمر ، إن كل إعاقة للاتصال الحر والمتكامل هو عملية وضع الحواجز التي تفـصل بـين الأفراد في جماعات وطوائف متضاربة وهذا بدوره يشكل اعتراضا على نمط الحياة الديمقراطية .

إن القوانين التي تضمن الحريات المدنية كحرية الاعتقاد، وحرية التعبير، وحرية الإجماع، ليست مهمة في هذا المستوى وذلك إذا كانت حرية الاتصال وتدوير الأفكار مكبوتة ومنوعة ، من خـلال الـشك والخوف والكراهية ، وهذه الأشياء تدمر الشرط الأساسي للحياة الديمقراطية بدرجة عالية وذلـك لأن هذه المظاهر تغذي الحقد والكراهية وانعدام الثقة واللاتسامح في نفوس الأفراد .

ولا بد لنا في هذا السياق من التأكيد على **شرطين للديمقراطية وهي أن الديمقراطية هي طريقـة** في **الحياة وأنا تنطلق من روح عقائدية** في **الإنسان قوامها التعاون اليومي** بين **الأفراد** . والديمقراطية وفقا للشرط الثاني هي عقيدة قوامها أن حاجات الناس وغاياتهم أمور تختلف من شخص لآخر ، وبالتالي فإن مواقف التعاون الودي ، التي لا تعطي للتنافس أولوية كما نشاهد ذلك في الرياضة، حالة هامـة جـدا

بالنسبة للحياة الديمقراطية . وهنا تجدر الإشارة إلى أن تحرير الصراعات ما أمكن ذلك من مبدأ البطش والقوة ، وتحويل هذه الصراعات إلى دائرة الحوار و الذكاء واحتواء الأشخاص مهما بلغت درجة عدائهم كأشخاص يشكل أيضا جوهرا للحياة الديمقراطية . إن لإيمان الديمقراطي أيضا بأهمية السلام هو منطلق للاعتقاد بإمكانية توجيه التناقضات والصراعات نحو مسافات التعاون والتفاهم ، **حيث يمكن لكل طرف أن يعبر عن رأيه وذلك بدلا من أن يعمل كل فريق على إلغاء الآخر وإبادته. فالتعاون يجب أن يتم** في **دائرة الاختلاف** ، **وذلك ينطلق من مبدأ الاعتقاد بأن التعبير عن الاختلاف ليس مجرد حق للآخر بل هو ضرورة ووسيلة لإغناء تجربة الحياة** ، وأن ذلك يشكل جانبا من جوانب طريقة الحياة الديمقراطية الشخصية .

قد يبدو أن كل ما قلته يمثل سلسلة من الترهات الأخلاقية التي تقال في الأماكن العامة، وأنا أقول في معرض الرد أنني من أجل ذلك قمت بإعداد هذه المقولات . إن التنازل عن عادة الاعتقاد بأن الديمقراطية أمر مؤسساتي أو خارجي بذاته يقودنا إلى النظر إليها كطريقة للحياة الشخصية ، وهذا يعني أن فهم الديمقراطية بوصفها مثالا أخلاقيا ضرورة حيوية ، وأن هذا المثال عندما يصبح واقعا حقيقيا فإن ذلك يشكل مسألة أخلاقية ، **وبالتحليل فإن الديمقراطية هي حقيقة أكيدة إذا كانت ميدان للحياة المشتركة** .

وبما أنني قد كرست حياتي في الممارسة الفلسفية فإنني ألتمس منكم أن تكونوا متسامحين ، ومن أجل أن ألخص فإنني أعرف العقيدة الديمقراطية باختصار وذلك بالعودة إلى مفردات اللغة الديمقراطية ، " **فالديمقراطية هي إيمان بلا حدود بقدرة التجربة الإنسانية على تنظيم الأهداف والمناهج التي تسمح للتجربة اللاحقة أن تكون أكثر غنى وتنظيما** ، أن كل أشكال العقائد الأخلاقية والاجتماعية تنطلق من فكرة أن التجربة يجب أن تكون في لحظة ما خاضعة لصيغة من الضبط الخارجي أي لسلطة يفترض أنها توجد خارج دائرة التجربة الداخلية ، فالديمقراطية هي الاعتقاد بأن آلية التجربة الإنسانية تستفيد بصورة متزايدة من هذه النتيجة أو تلك .

فالنتائج الخاصة تحمل قيمة داخلية بالضرورة ، وذلك إذا كانت تهدف إلى إغناء وتنظيم العملية اللاحقة ، وذلك لأن أولوية التجربة يمكنها أن تكون تربوية **وبالتالي فإن العقيدة الديمقراطية لا يمكنها أن تنفصل عن العقيدة أو التجربة التربوية** ، وبالتالي فإن كل الغايات والقيم التي تنفصل عن هذه العملية تتحول إلى كوابح وصيغ محددة ، وهي بالتالي تعمل على تجميد وتحجيم ما تم اكتسابه بدلا من إغنائه وفتح المنافذ الجديدة للتجربة الأفضل ، وإذا ما سئلت عما أعنيه بالتجربة في هذا السياق ، أجيب

بأنها هذا التفاعل الحر للأفراد مع الشروط التي تحيط بهم ، ولا سيما في الوسط الإنساني والذي يـشمل الحاجة إلى إنماء وتطوير معارف الإنسان عن الأشياء كما هي في الواقع ، وهذا يشكل القاعدة الـصلبة للاتصال والمشاركة ، وبالتالي فإن أي اتصال يدل على نماء الرأي بين الأشخاص . فالحاجة والرغبـة مصادر وموجهات للطاقة الإنسانية وهي تدفعنا إلى أبعد ما هو قائم ، وإلى أبعد مـن حـدود المعرفـة والمعرفة العلمية ، وهي توفر لنا الطريق إلى المستقبل الذي لم نستطلع أبعاده بعد ، إلى الحـدود الـتي لم نصل إليها حتى هذه اللحظة .

ومهما اختلفت طرق الحياة فالديمقراطية هي الشيء الوحيد الذي ينمي عملية التجربة الإنسانية بوصفها غاية ووسيلة ، وبوصفها قادرة على تنظيم العلم، فهي عين القدرة على بناء تجربة المستقبل ، والأداة القادرة على تحرير عواطفنا وحاجاتنا ، وذلك من أجل توفير ما لم يكن في الماضي . إن طـرق الحياة التي لا تأخذ طابعا ديمقراطيا كافيا تحد من إمكانيات الاتصال والتبـادل والتفاعـل الاجتمـاعي والإنساني . وغني عن البيان **أن التفاعل هو التجربة التي تغني وتوسع مدارك الحياة وعطاءات التجربة الإنسانية** . وهذا يعني أن حرية الاتصال والقدرة على إحياء التجربة الإنسانية الديمقراطية يشكل مهمة يجب علينا أن نكرسها يوما بعد يوم ، فالمهمة الديمقراطية تؤكد في كل يوم على أهمية بناء تجربة الحيـاة على نحو تتضافر فيه قيم الحرية مع القيم الإنسانية .

ترجمة المقالة عن الوثيقة التالية :

Johon dewey : La démocratie créatrice et la tache qui nous attends , Texte d’une conférence préparée en 1939 par dewey a l’occasion d’un congres organisé en l’honneur de ses 80 ans . in : Horizons philosophiques , Vil5. No2 , 1997.